التراث الفكري في الدولة الإسلامية

المكتبات الشخصية من القرن الثاني إلى القرن العاشر الهجري

✽ أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة ابن رشد - هولندا

Email: ashraf-salih@hotmail.com

ملخص:

اهتم الإنسان منذ القدم بإنشاء خزائن الكتب أو المكتبات لتجميع التراث الإنساني الذي تمثل في الكتب، وتنظيمه والحفاظ عليه، وتيسير الاستفادة منه. وقد بدأ فجر المكتبات الإسلامية في البزوغ منذ مرحلة مبكرة، حيث كان للمسلمين ولع شديد بالكتب واقتنائها أدى إلى انتشار المكتبات في طول البلاد وعرضها، فالمكتبة الإسلامية كانت إحدى نتائج الحضارة الإسلامية المتميزة، وكانت في الوقت نفسه عامل مساعد على نشر تلك الحضارة. وتعرض هذه الدراسة واحدة من أوائل وأهم أنواع المكتبات التي ظهرت في العالم الإسلامي، ألا وهي المكتبات الشخصية (الخاصة) من القرن الثاني إلى القرن العاشر الهجري مع ذكر نماذج لتلك المكتبات، حيث إنها تُعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الأفراد بالفكر والعلم، مما يجعلها من أهم مقاييس تقدم ورقي الحضارة الإسلامية.

كلمات مفتاحية: تاريخ المكتبات، المكتبات الخاصة، التراث
المكتبي

Abstract:

The book is a pot of knowledge, so human has interested in create bookcases or libraries since ancient times to collect human heritage which is represented in the books, this for organize, keep, and to facilitate the benefit of that heritage. The dawn of Islamic libraries began to emerge from an early stage; the Muslims were very excited by the acquisition of books that led to the spread of libraries across the country, Islamic Library was one of the outstanding results of the Islamic civilization, and at the same time was the catalyst for the expansion of that civilization. This study reviews one of the first and most important types of libraries that have emerged in the Islamic .world, namely, personal libraries, with models for those libraries

Key words: History of libraries, Private Libraries, libraries
heritage,

مقدمة

تعتبر المكتبات الشخصية من أوائل المكتبات التي عُرفت في العالم، وذلك لأن حب التملك هو غريزة فطرية لدى البشر، ولأن الإسلام حث على طلب العلم وتحصيله من مظانه المختلفة، لذا اقبل المسلمون على اقتناء الكتب وتكوين المكتبات، فكانت المكتبات الشخصية (الخاصة) من أوائل المكتبات التي عُرفت في العالم الإسلامي. والمكتبات الشخصية كما يبدو من اسمها كانت خاصة بأفراد معينين قد أنشأوها لفائدتهم أو لمصلحتهم الشخصية وبالتالي لاستخدامهم الخاص، إلا أن بعض تلك المكتبات كثيراً ما كان يُسمح لأفراد آخرين باستخدامها سواء للاطلاع الداخلي أو للاستعارة الخارجية، فكانت تلك المكتبات بمثابة مكتبات خاصة عامة.⁽¹⁾ وتزخر المصادر العربية بالعديد من الأمثلة على هذا النوع من المكتبات سواء لأفراد لهم مكانة في الدولة كالوزراء والعلماء، أم لأفراد عاديين، فلقد انتشرت المكتبات الشخصية في جميع أنحاء العالم الإسلامي، ونعرض فيما يلي نماذج لتلك المكتبات في مصر والشام والأندلس.

اقتناء الكتب وتكوين المكتبات الشخصية

الإمام الكبير أبو عبد الرحمن بن عبد الله لهيعة المصري (ت. 174هـ/ 790م)، قاضي الديار المصرية (155هـ) وعالمها ومحدثها، كانت لديه مكتبة كبيرة، وقد ترك لنا مجموعة مدونة من الحديث تعتبر أقدم

(1) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصائرهما. - القاهرة: مؤسسة الرسالة، 1970. ص 86.

مجموعة أوراق بردي.⁽²⁾ وأبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ المطليبيّ القرشيّ (ت. 204هـ / 820م)، هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، صنف في مِصْرَ ما يربو على مائة كتاب بعد أن ارتحل إليها سنة 199/200هـ، ولا شك أنها كانت ضمن مكتبته الخاصة التي كان يرجع إليها لأغراض القراءة والتأليف.⁽³⁾

من أوائل المكتبات الشخصية مكتبة الفقيه عبد الملك بن حبيب بن مرداس السلمي (ت. 238هـ / 853م). قال ابن عبد البر: "وكان جماعاً للعلم. كثير الكتب. طويل اللسان فقيهاً نحوياً عروضياً. شاعراً نساباً إخبارياً. وكان أكثر من يختلف إليه الملوك وأبناؤهم".⁽⁴⁾ وقال إبراهيم المنذر الجزائري: "أتاني صاحبكم ابن حبيب بغرارة مملوءة كتباً فقال لي: هذا علمك تجيزه لي؟ فقلت له: نعم، ما قرأ عليّ منه حرفاً، ولا قرأته عليه".⁽⁵⁾ وتُعدّ مكتبة ابن حبيب هذه أول مكتبة أندلسية خاصة تذكرها المصادر التي بين أيدينا.

لم يكن تأسيس المكتبات قاصراً على الأغنياء وحدهم، وإنما كان البسطاء وذوي الدخل المحدودة يعنون بأن تكون لهم مكتباتهم

-
- (2) شمس الدين الذهبي، تذكرة الحفاظ-. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1957. (ج1/ص215). سيدة إسماعيل الكاشف، مِصْرَ في عصر الولاة: من الفتح إلى قيام الدولة الطولونية-. القاهرة: الهيئة المِصْرِيَّة العامة للكتاب، 1988. ص183.
- (3) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج4/ص163 - 169). ديوان الإمام الشافعي/ تحقيق: عبد المنعم خفاجي-. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، 1984. ص3 - 26.
- (4) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة/ تحقيق: محمد عبد الله عنان-. القاهرة: مكتبة الخانجي، 1973. (ج3/ص549)
- (5) عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك/ تحقيق: أحمد بكير محمود-. بيروت: دار الحياة، (د.ت). (مج2/ ج3/ص34). ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس-. القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1996. (ج1/ص271)

الخاصة في بيوتهم في ضوء ما تسمح به إمكانياتهم، ويقدمونها على مظاهر الحياة الأخرى كالملبس والمأكل. ولدينا معلومات عن صاحب كُتَّاب يُدعى محمد بن حزم (ت. 282هـ/ 895م) "يعلم الأولاد فيه بمساعدة ابن له يقوم على تعليم الصبيان، وابنة تقوم على تعليم الفتيات، والمبالغ التي يدخره يشتري بها كتبًا، وفي أوقات الفراغ يقوم بنسخ الكتب التي يعيرها له على أصدقاؤه، وبالرغم من ظروفه المتواضعة التي لا تسمح له أن يستخدم خزانًا لمكتبته، كانت مكتبته منظمة، وفيها كتب قيمة وأحيانًا نادرة، وكان أدباء قرطبة يحسدونه على دقة كتبه وروعها، التي أحضرها في رحلة كانت له إلى المشرق لهذا الغرض. وكان راوية للأدب والطرف، ولم يكن قبله أجمع للدواوين منه، ولا أصبر على الكتاب، ولا أدوم على النظر، وخرج حاجًا فأدركته الوفاة في مسيرة وقد ركب البحر فكفن، وصلى عليه وألقي في البحر".⁽⁶⁾

كان لدى أبي زكريا، يحيى بن عابد بن كيسان (ت. 375هـ/ 986م)، مولى هشام بن عبد الملك مكتبة قيمة. ويروي ابن الفرضي عنه أنه قال: "لوعددت أيام مشي في المشرق وعددت كتبي التي كتبت هناك بخطي لكانت كتبي أكثر من أيامي بها، وقضى اثنين وعشرين سنة".⁽⁷⁾ ويعني ذلك أنه كان ينسخ كل يوم كتابًا، ولذا فإن مكتبته كانت تحتوي على أكثر من ثمانية آلاف مجلد.

(6) ابن الأثير، التكملة لكتاب الصلة/ تحقيق: عبد السلام الهراس.- بيروت: دار الفكر، 1995. (ج1/ ص286، ص287). خوليان ريبيرا، "المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية"/ ترجمة: جمال محمود محرز.- مجلة معهد المخطوطات العربية. (ج1/ مج4/ مايو 1958/ ص92).

Olga Pinto, "The libraries of Arabs during the time of Abbasids".- Islamic culture.- Vol.3 (April 1929). P.218

(7) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، (ج2/ ص194).

كان يعقوب بن كلس (318-380هـ/ 930 - 990م) "يعقوب بن إبراهيم بن هارون بن داود بن كلس، أبو الفرج"، وزيرًا للعزیز بالله الفاطمي (ت. 386هـ/ 966م) صاحب مِصْرَ، وكان محبًا للعلم وأهله، يجتمع لديه العلماء، وقد رتب لنفسه مجلسًا في كل ليلة جمعة ليقرأ فيها مصنفاًته على الناس، ولقد أوجد لنفسه في داره مكتبة ضخمة جعل بها نساخًا ماهرة لكتابة القرآن والحديث والفقه والأدب وحتى الطب، وكانت تدور بينهم المناقشات في أمور كثيرة.⁽⁸⁾

وهو أول وزير للدولة الفاطمية في الديار المِصْرِيَّة، وصاحب فكرة تحويل الجامع الأزهر إلى جامعة علمية يتحلق فيها العلماء والفقهاء والأدباء لدراسة وتعليم العلوم الدينية والعقلية، وكان يهودي الديانة ثم اسلم في عهد كافور الأخشيدي، وكان من العلماء المشهورين بحبه للعلم والمعرفة، وله دور كبير في ازدهار الحركة العلمية والأدبية في العصر الفاطمي.⁽⁹⁾

وكان ابن كلس الوزير المخلص للخليفة العزیز بالله ويده اليمنى في نشر المذهب الإسماعيلي، وكان بطبعه عالماً أديباً، له هممة عالية في تأليف الكتب وجمعها، فقد ألف بعض الكتب لنشر المذهب الإسماعيلي، من أشهرها كتاب مختصر في الفقه الإسماعيلي سماه "الرسالة الوزيرية"، يتضمن كل ما سمعه من مولاه المعز وابنه العزیز بالله، وكان يجلس كل يوم جمعة في الجامع العتيق لقراءة هذا الكتاب بنفسه وحوله جماعة من الناس والفقهاء والقضاء والقراء والأدباء، كما ألف كتابًا في القراءات، وكتابًا في الأديان، وكتابًا في علم الأبدان

(8) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج7/ ص27).

(9) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج7/ ص28).

وصلاحها بلغ حجمه ألف ورقة، وكتابًا في آداب رسول الله (ﷺ)، هذا فضلاً عن الكثير من المصاحف والكتب التي كان يمتلكها.⁽¹⁰⁾

ونتيجة لولع ابن كلس بتأليف الكتب وجمعها، حرص على أن تكون لديه مكتبة خاصة به في داره، تضم مؤلفاته الشخصية والمؤلفات التي ألّفه له، كما كان حريصاً أيضاً على اقتناء المؤلفات في كل أنواع العلوم، حيث كان يجتمع في داره "قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب، حتى الطب، ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطونها".⁽¹¹⁾ وإلى جانب حبه للعلم والمعرفة فقد كان ابن كلس يقدر أهل العلم والأدب ويقريهم إليه ويجزل لهم العطايا والمنح، فكان من الطبيعي أن تكون داره ومكتبته ملتقى العلماء والأدباء، حيث "رتب في داره العلماء من الأدباء والشعراء والفقهاء والمتكلمين وأجرى لهم جميعاً الأرزاق".⁽¹²⁾

كما خصص ابن كلس يوماً في داره لإجراء المناظرات بين العلماء والأدباء، فإذا جاء يوم الثلاثاء "يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل وتجري بينهم المناظرات"،⁽¹³⁾ وكان من بين جلساته الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلزلي مؤلف كتاب "الأسجاع"،⁽¹⁴⁾ كما كان حريصاً على استضافة العلماء المتخصصين في بعض العلوم في مكتبته، وتشجيعهم على تأليف الكتب، ومنهم: الطبيب

(10) المقرئ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار: المعروف بالخطط المقرئية- بيروت: دار صادر، 1983. (ج2/ص6، ص8، ص341).

(11) ابن خلكان. وفيات الأعيان. (ج7/ص29).

(12) المقرئ، الخطط. (ج2/ص6، ص341).

(13) المقرئ، الخطط. (ج2/ص341).

(14) ابن خلكان، وفيات الأعيان. (ج7/ص29).

المشهور محمد بن أحمد ابن سعيد التميمي الذي ألف له كتابًا كبيرًا في عدة مجلدات.⁽¹⁵⁾

وقد ظلت هذه المكتبة الشاملة لكل أنواع العلوم والمعارف تخدم العلماء والفقهاء والمترددين عليها، وذلك بما أتاحتها لهم من كتب في جميع فروع المعرفة، وبما وفرته من وسائل للراحة والاطلاع والنسخ، كما كان لها أكبر الأثر في نشر المذهب الفاطمي نظرًا لمجالس المحاضرات ودروس الفقه التي كانت تعقد بين العلماء، واستمرت على هذا الحال إلى أن مات ابن كلس فنقل جزء كبير منها إلى مكتبة القصر الفاطمي، فزادتها ثراء وعظمة وأضافت إليها الكثير من كنوز المعرفة.⁽¹⁶⁾

أما أبو الفتوح برجوان (ت. 390هـ/ 1001م)، أستاذ الخليفة الحاكم بأمر الله ومعلمه ومدبر دولته وخادمه المخلص، نظر في الوزارة سنة (388هـ/ 999م)، واشتهر بالتدريس للخلفاء والأمراء، وكان من الطبيعي أن يكون لديه مكتبة كبيرة تساعد في تنمية معلوماته ومداركة العلمية، حيث وجد بعد وفاته من بين ثروته كتب كثيرة لا تعد ولا تحصى،⁽¹⁷⁾ وقد وصفه المقريزي بأنه كان له "من الكتب شيء كثير".⁽¹⁸⁾

(15) القفطي، إخبار العلماء بأخبار الحكماء- القاهرة: مكتبة المتنبى، (د.ت). ص74. ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ تحقيق: عامر النجار- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 2001. (ج3/ ص144).

(16) حنان عبد الله محروس، المكتبات في مصر في العصر الفاطمي (أطروحة ماجستير إشراف/ عبد الستار الحلوجي)- الجيزة: كلية الآداب- جامعة القاهرة، 2007. ص58.

(17) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج1/ ص270).

(18) المقريزي، الخطط، (ج2/ ص4).

كانت خديجة بنت جعفر بن نصر التميمي زوج عبد الله بن أسد الفقيه لديها مكتبة، فقد "حدثت عن زوجها عبد الله، وقيدت سماعها بخطها في سنة 394هـ ... وحبست مكتبتها عند ابنتها".⁽¹⁹⁾ وهذا كانت المرأة المسلمة متفوقة في مجال العلم والأدب في ذلك العصر المزهر، بينما كانت مثيلاتها من النساء في أوروبا يرزحن تحت الجهل والعبودية.⁽²⁰⁾

ومن أشهر مكتبات مدينة طليطلة، مكتبة أحمد بن محمد بن عبيدة الأموي المعروف بابن ميمون (ت. 400هـ/ 1009م)، الذي "جمع من الكتب كثيرًا في كل فن، وكانت جليها بخط يده، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحًا، أمهات لا يدع فيها شبهة مهملة، وقل ما يجوز عليه فيها خطأ ولا وهم، وكان لا يزال يتتبع ما يجده في كتبه من السقط والخلل بزيادة في اللفظ أو نقصان منه فيصلحه حيث ما وجده ويعيده إلى الصواب، وكانت كتبه وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب في طليطلة".⁽²¹⁾ ومن الطريف أنه يوم وقع الحريق في سوق طليطلة احترقت دار ابن ميمون إلا البيت الذي كانت فيه كتب أحمد، وكان ذلك الوقت في الرباط، "وعجب الناس من ذلك، وكانوا يقصدون البيت ينظرون إليه".⁽²²⁾

لم يكن الاهتمام بجمع الكتب وتكوين المكتبات الشخصية في الأندلس مقتصرًا على الرجال فقط، بل لقد وجدت نساء عالمات

(19) ابن بشكوال، الصلة، ص693.

(20) وفاء البياتي، "الكتب والمكتبات"، (مرجع سابق)، ص282.

(21) ابن بشكوال، الصلة، ص22. ريبيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، (مرجع سابق)، ص183

– 184.

(22) ابن بشكوال، الصلة، ص23.

اهتممن بجمع الكتب وبالأدب مثل عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم (ت. 400هـ / 1010م)، التي كانت أكثر أهل زمانها علمًا وأدبًا وفصاحة، وكانت حسنة الحظ تكتب المصاحف والدفاتر، وتجمع الكتب، وتهتم بالعلم، وكانت لها خزانة كتب كبيرة اشتملت على نفائس الكتب في مختلف صنوف العلم.⁽²³⁾

وكان إبراهيم ابن عبد الله المعروف بـ "ابن النوالة" (ت. في بداية القرن الخامس الهجري) لديه مكتبة يُستعان بها في التأليف والتصنيف، وصفه الحجازي بأنه "مما كان يؤخذ من ماله وأدبه، وأنه استعان بخزائن كتبه على ما صنفه كتاب المسهب".⁽²⁴⁾

ومن أشهر المكتبات الشخصية مكتبة القاضي أبي المطرف عبد الرحمن محمد بن عيسى بن أصبغ (348-402هـ / 959-1011م). قاضي الجماعة (قاضي القضاة) في قرطبة سنة 394هـ، من أئمة المحدثين وكبار العلماء، واسع الرواية والحفظ، فكان يملي الحديث من حفظه في مسجد والناس يكتبون. "وكان حسن الخط جيد الضبط، جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره... وكان له ستة وراقين ينسخون له دائمًا، وكان قد رتب لهم على ذلك راتبًا معلومًا، وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياح منه، وبالغ في ثمنه فإن قدر على ابتياحه وإلا انتسخه منه وردده عليه". ويذكر أن "أهل

(23) ابن بشكوال، الصلة، (ج2/ص654)

(24) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، (ج1/ص71).

قرطبة اجتمعوا لبيع [كتبه]... مدة عام كامل في مسجده في الفتنة في الغلاء، وأنه اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسميه".⁽²⁵⁾

"وكان لا يعير كتابًا من أصوله البتة،⁽²⁶⁾ وكان إذا سأله أحد ذلك وألح عليه السؤال، أعطاه للناسخ فندسخه وقابله ودفعه إلى المستعير، فإن صرفه وإلا تركه عنده".⁽²⁷⁾ وقد أعدّ لمكتبته مكانًا خاصًا وتفنن في زخرفته، "وكانت كتبه في مجلس جدرانها بالخضرة وسمكه ومسطحه والبرطل أمامه، والبسط الذي فيه والنمارق كلها خضر".⁽²⁸⁾

أما فاتن الصقلي (ت.402هـ/ 1011م) وهو أحد موالى المنصور الصقلية، وقد جمع في خزائنه عددًا كبيرًا من الكتب المضبوطة الصحيحة، "وكان أوحد لا نظير له في علم كلام العرب، وناظر صاعد

(25) ابن فرحون، الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب/ تحقيق: محمد الأحمدى أبو النور- القاهرة: دار التراث، 1974. (مج1/ ص478). ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب- بيروت: دار إحياء التراث العربي، د.ت. (ج3/ ص163). شعبان خليفة، الكتب والمكتبات، (مرجع سابق)، ص269. حامد الشافعي، الكتب والمكتبات، (مرجع سابق)، ص102. محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام: نشأتها وتطورها ومصانرها- بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978. ص97. وانظر أيضًا:

Thompson, Moslem libraries (Mediaeval).- Encyclopedia of library and information science. Vol. 30. (1983). P. 372.

قاسمية: نسبة إلى الدنانير التي ضربها القاسميون في قرطبة، أولهم حمود القاسم الذي ضرب دينارًا في قرطبة سنة 414هـ راجع: الشيخ عبد الحي الكتاني، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب- الرباط: المكتبة الحسنية، 2005. هامش (1)، ص60
(26) عبد الله الحبشي، الكتاب في الحضارة- الكويت: شركة الربيعان للنشر والتوزيع، 1986. ص103.

(27) متز، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري/ ترجمة: محمد عبد الهادي أبوريدة- القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995. ص146

(28) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس (كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا)- القاهرة: دار الكاتب المصري، 1948. ص88.

فقطعه وظهر عليه وبكته فأعجب المنصور به، ولما توفي فاتن بيعت في تركته كتب مضبوطة جليلة مُصححة⁽²⁹⁾.

وكان ابن الفرضي (ت.403هـ / 1012م)، عبد الله بن محمد بن نصر الأزدي، من العلماء الذين لديهم مكتبة عامرة تعينه على التأليف والتصنيف، "فقد كان جماعاً للكتب حتى اقتنى منها عددًا كبيراً لم يقننيه أحد من أهل قرطبة"⁽³⁰⁾.

يُعدّ سلمة بن سعيد "سلمة بن سعيد بن حفص بن عمر، أبو القاسم" (327-406هـ / 938-1015م) أحد أكابر شيوخ الأندلس الذين اعتنوا بالكتب أشد الاعتناء، فكان الرجل يرحل إلى المشرق ومصر ليجمع من كتب العلم ما شاء، فكان كلما اجتمع لديه مقدار من الكتب أرسل به إلى الأندلس، فجمع بذلك مكتبة ضخمة حوت الكتب من كل فن⁽³¹⁾.

أما هشام بن عبد الرحمن (ت.423هـ / 1031م) عُرف عنه جودة النسخ، والاهتمام بالكتب، وحيازته للكثير منها⁽³²⁾ وقد شاركت المرأة

(29) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة/ تحقيق: إحسان عباس.- بيروت: دار الثقافة، 1979. (ق4/مج1/ص34). المقرئ، نفع الطيب، (ج3/ص82). ابن الأبار، التكملة، (ج2/ص67).

(30) الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس.- القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة، 1966. ص254. ابن بشكوال، الصلة، ص251. أنجل حنثاليث بالنتيا، تاريخ الفكر الأندلسي/ نقله عن الإسبانية: حسين مؤنس.- القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1955. ص271.

(31) ابن بشكوال، الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم وحديثهم وفقهائهم وأدبائهم/ تحقيق: عزت العطار الحسيني.- القاهرة: مكتبة الخانجي، 1994. (ج1/ص219-220)

(32) صورية متاجر، علم الوثائق والوثائقيين في الأندلس ما بين القرنين الثاني والسادس الهجريين: دراسة توثيقية بيبليوغرافية (أطروحة دكتوراه/ إشراف: محمد صاحبي).- الجزائر: كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة وهران، 2014. ص56.

الأندلسية الرجال في هواية جمع الكتب، ووجد نساء كانت لهن مكتبات، مثل: راضية مولاة الإمام عبد الرحمن بن محمد الناصر (ت.423هـ/1032م)، تدعى نجم، فقد روى عنها أبو محمد بن خزرج وقال: "عندي بعض كتبها".⁽³³⁾

كان الوزير أبو جعفر أحمد بن عباس (ت.427هـ/1035م) له عناية بالأدب والعلوم، وكان جماعة لكتب العلم فعال في أثمانها، جمع منها ما لم يكن عند ملك، إلا أنه كان ضئيلاً بها، إذ أنه كان بخيلاً ومغروراً في الوقت نفسه، ويقال أن كتبه بلغت أربعمئة ألف مجلد.⁽³⁴⁾ "وكان قد بذ أهل زمانه بأربعة أشياء: المال، والعجب، والبخل، والكتابة، ويقال أن ما جمعه من الدفاتر بلغت أربعمئة ألف مجلد، أما الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عددها لكثرتها".⁽³⁵⁾ ويقول عنه ابن الخطيب إنه "كان جامعاً للدواوين العلمية معنياً بها مقتنياً للجيد منها، مغالياً فيها، نفاعاً من خصه بها، لا يستخرج منها شيء لفرط بخله بها إلا لسبيلها حتى لقد أثرى كثير من الوراقين والتجار معه فيها، وجمع منها ما لم يكن عند ملك".⁽³⁶⁾

(33) ابن بشكوال، الصلة، ص694.

(34) ابن سعيد الأندلسي، المغرب في حُلِّي المغرب/ وضع حواشيه: خليل المنصور- بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. (ج2/ص170-171)

(35) دوزي، ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام/ ترجمة: كامل كيلاني- القاهرة: مكتبة عيسى الباي الحلبي، 1933. ص47. فيليب دي طرازي، خزائن الكتب العربية، (مج2/ص759).

(36) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (ق1/مج2/ص664). ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الأول/ ق1/ ص277). ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، (ج1/ص259).

ولقد صُودرت كتب ابن عباس وذلك في أثناء الفتن الداخلية التي حدثت في البلاد على عهد ملوك الطوائف (422-484هـ / 1031-1091م) حيث اتسم ذلك العهد بالتفكك السياسي، فكانت كل إمارة تحاول الاستيلاء على ما حولها من الإمارات الأخرى، فلقد كان ابن عباس وزيراً لزهير العامري (ت. 429هـ / 1038م) ملك المرية (من أعمال الأندلس) وحدثت بينه وبين باديس بن حيوس بن ماكس الصنهاجي (ت. 465هـ / 1073م) ملك غرناطة منازعات انتهت لصالح باديس وأُسر الوزير بن عباس فيمن أُسر من أتباع زهير واستولى باديس على جميع كتبه وأملاكه.⁽³⁷⁾

كان ابن الموصل، محمد بن يحيى الغافقي (ت. 433هـ / 1041م)، "أديباً كاتباً جامعاً لدفاتر العلم من لدن صباه، مقتنياً لكرائمها، بصيراً بخيارها، عارفاً بخطوطها يحتكم إليه في ذلك، مؤثراً لها على كل لذة حتى اجتمع منها عنده ما لم يجتمع لأحد في الأندلس بعد الخليفة الحاكم، وبعد وفاته باع ورثته المكتبة وأغلوا فيها حتى قومت الورقة في بعضها بربع مثقال"⁽³⁸⁾ وما من ريب؛ أن في ذلك إشارة واضحة إلى مدى ما اتصف به الأندلسيون من اهتمام وعناية بالكتب واستعداد الكثير

(37) ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة.- القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939. (مج2/ق1/ص166-167)

(38) ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، (ج1/ص312). ويشير ابن خلدون إلى أن: "وزن المثقال من الذهب اثنتان وسبعون حبة من الشعير" وبناءً عليه فربح المثقال يساوي ثمانية عشر حبة من الشعير. انظر: ابن خلدون، المقدمة/ تحقيق علي عبد الوافي.- القاهرة: دار نهضة مصر، 1981. (ج2/ص703).

منهم ببذل الغالي من الأثمان في سبيل المعرفة بشراء كتبها، وفيه دلالة أيضاً على الرقي العلمي الذي كان يعيشه المجتمع الأندلسي.⁽³⁹⁾

أما عمر بن عبید الله الزهراوي (ت.454هـ) "حاول النجاة بمكتبته، فشد ما اختاره منها في ثمانية أحمال ليخرجها من داره في الریض الغربي إلى مكان آخر أكثر أمنًا، ولكن لم يستطع أن يحقق غايته، فقد انتهيها البرير".⁽⁴⁰⁾

ومن المكتبات التي نالت شهرة كبيرة في الأندلس مكتبة ابن حزم (383-457هـ/ 993-1064م) "علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب" الذي نشأ في قرطبة وكان من أهم علمائها في الحديث والفقه، وكانت له عناية خاصة بعلم المنطق وألف فيه كتبًا خالف فيها أرسطاليس واطاع هذا العلم، فلقد كانت مخالفته دالة على عدم فهم ولذلك جاءت كثيرة الغلط فيما يذكر ياقوت الحموي.⁽⁴¹⁾ ولقد كان لابن حزم مكتبة ضخمة، فيقال أن كتبه كانت تشتمل على نحو أربعمئة ألف مجلد كل مجلد ثمانين ورقة.⁽⁴²⁾ ولقد أحرقت معظم كتب ابن حزم بأمر من المعتضد بن عباد "عباد بن محمد بن إسماعيل، أبو عمرو" (404-461هـ/ 1013-1069م) ملك إشبيلية وذلك بإيعاز من

(39) سعد عبد الله صالح البشري، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس/ أطروحة ماجستير إشراف: أحمد السيد دراج- مكة المكرمة: كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة أم القرى، 1982. ص130.

(40) شرين السيد عبده محمود، الاتصال الوثائقي في الأندلس (أطروحة ماجستير/ إشراف: حمدي عبد المنعم، السيد النشار).- الإسكندرية: كلية الآداب - جامعة الإسكندرية، 2002. ص149.

(41) ياقوت الرومي، معجم الأديباء.- القاهرة: دار الفكر، 1980. (ج3/ ص546-547).

(42) عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب/ تحقيق: محمد سعيد العريان، محمد العربي العلمي.- القاهرة: دار الاستقامة، 1949. ص47. المقري، نفع الطيب، (ج2/ ص83).

الفقهاء في ذلك العصر، حيث كان ابن حزم في بادئ الأمر شافعياً أي يسير على مذهب الإمام الشافعي ويدافع عنه حتى عُرف ونُسب إليه، ثم تحول إلى المذهب الظاهري فابتعد عنه الفقهاء وأخذوا يحذرون الناس منه.⁽⁴³⁾

كان عبد الله بن حيان الأروشي (ت. 487هـ/ 1094م) له همة عالية في اقتناء الكتب وجمعها، وجمع من ذلك شيئاً عظيماً، وقد تعرضت مكتبته لنكبة لا يعرف سببها. فقد ذكر المؤرخون أن المأمون بن ذي النون صاحب بلنسية "أخذ كتب الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، بلغت مائة وثلاثة وأربعون عدلاً من أعدال الحمالين، يُقدر كل عدل بعشرة أرباع. وقيل أنه قد أخفى منها نحو الثلث".⁽⁴⁴⁾

أما الطبيب أفرائيم بن الزفان، فهو أبو كثير أفرائيم بن الحسن بن يعقوب بن الزفان (ت. 594هـ/ 1198م)، الطبيب اليهودي المشهور في الديار المِصرِيّة في العصر الفاطمي في أيام ولاية الوزير الأفضل بن أمير الجيوش. حرص أفرائيم على أن تكون لديه مكتبة ضخمة تشمل على الكثير من المراجع والكتب الطبية وغيرها من الكتب في مختلف العلوم، وذلك لكي تُعينه على مهنته الإنسانية، وقد تحقق له ذلك بفضل سعيه الدائم وجهده في "تحصيل الكتب، وفي استنساخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها".⁽⁴⁵⁾ وقد بلغت مكتبته "ما يزيد على عشرين ألف مجلد"، وذلك بفضل النُسخ الموجودين دائماً في داره بصفة مستمرة يكتبون وينسخون، ولهم منه ما يقوم بكفائتهم من

(43) ياقوت الرومي، معجم الأدياء، (ج3/ ص552-553).

(44) ابن بشكوال، الصلة، ص288. الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس-. القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967. ص343.

(45) متولي قمر الدولة، المكتبة ودورها، (مرجع سابق)، ص103.

رواتب وعطايا وأرزاق. وتعدت شهرة هذه المكتبة الطبية المتخصصة إلى البلاد الأخرى، فأتى إليها تجار الكتب من كل مكان ليشتروا كتبه القيمة، وقد اشترى الوزير الأفضل بعضاً من كتب هذه المكتبة، لذلك وجد عدد كثير من كتبه الطبية يحمل اسم أفرائيم علاوة على اسم الأفضل.⁽⁴⁶⁾

كان الأمير مبشر بن فاتك الأمدي (ت. 500هـ/ 1106م) "محمود الدولة، أبو الوفاء" من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها المحبين للعلم وأهله، ومن المعروفين بتفوقهم في العلوم الرياضية والمنطقية، أصله من دمشق واستوطن الديار المصرية في أيام الخليفة الظاهر والمستنصر. كان كثير الكتابة والتأليف، حيث وجدت له كتب كثيرة بخط يده من تأليف المتقدمين عليه، ومن مؤلفاته كتاب "الوصايا والأمثال والموجز حُلم الأقوال"، وكتاب "البداية في المنطق"، وكتاب "مختار الحكم ومحاسن الكلم"، وله كتاب عن سيرة الخليفة الفاطمي المستنصر بالله في ثلاث مجلدات. ملك من الكتب عدد كبير يصعب حصره،⁽⁴⁷⁾ فكانت له خزائن كتب لا يفارقها في أكثر أوقاته، وصفها الشيخ سديد الدين المنطقي، فقال: "كانت له خزائن كتب، فكان في أكثر أوقاته إذا نزل من الركوب لا يفارقها، وليس له دأب إلا المطالعة والكتابة، ويرى أن ذلك أهم ما عنده"⁽⁴⁸⁾، فانصرف عن أمور الحياة وانشغل بهذه الخزائن، حيث ملك من الكتب ما لا يحصى عدده كثرة. ومن الأمور الطريفة أن تلك المكتبة قد دُمرت على يد زوجته، فقد كان لابن فاتك زوجة كبيرة القدر، ولكنها كانت تكره كتبه لانشغاله بها عنها، فعندما توفي الأمير

(46) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج3/ص 174 - 175).

(47) ياقوت الرومي، معجم الأديباء، (ج5/ص 53).

(48) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج3/ص 163).

قامت هي وجواربها إلى خزانة كتبه، وأخذت الكتب وألقت بها في بركة ماء كبيرة كانت في وسط الدار، ولقد رُفعت الكتب بعد ذلك من الماء، إلا أنه قد غرق أكثرها.⁽⁴⁹⁾

مكتبة "محمد بن أحمد بن حامد الغزالي" (ت. 505هـ / 1111م)، حجة الإسلام، الذي لم يكن في الآخرين مثله، كانت في دمشق، وفيها تسعمائة وتسعاً وتسعين مصنفاً، ومن أهمها "ياقوت التأويل في تفسير القرآن"، أربعين مجلداً.⁽⁵⁰⁾

أما الوزير الأفضل بن بدر الجمالي (ت. 515هـ / 1122م). تقلد الوزارة في مِصرَ الفاطمية خلال الفترة (487 – 515هـ)، وكان رجلاً يحب العلم ويقدر العلماء ويغدق عليهم، وكانت له مكتبة كبيرة حوت خمسمائة ألف مجلد من الكتب العلمية.⁽⁵¹⁾ عُثر عليها في داره بعد مقتله في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله، فقد كان يحب العلم والعلماء ويقدرهم، وكان محباً لجمع الكتب شديد المحافظة عليها.⁽⁵²⁾

وقد تميز الأفضل عن غيره من الوزراء بحرصه على الكتب وغيرته عليها ومنع بيعها وتصديرها إلى خارج البلاد، ولاسيما إذا كانت هذ

(49) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج3/ص400-401).

(50) الأذنوي: أحمد بن محمد، طبقات المفسرين/ تحقيق: سليمان بن صالح الغزي- المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، 1997. ص152 – 153.

(51) المقرئزي، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء/ تحقيق: محمد حلي محمد أحمد-. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، 1973. (ج3/ص70). ابن ميسر، المنتقى من أخبار مِصرَ/ انتقاه تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي/ حققه وكتب مقدمته وحواشيه ووضع فهرسه: أيمن فؤاد سيد-. القاهرة: المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، 1981. ص80. النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب/ تحقيق: محمد محمد أمين، محمد حلي محمد أحمد-. القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 1992. (ج28/ص282).

(52) حنان محروس، المكتبات، (مرجع سابق)، ص59.

الكتب ذات قيمة علمية عالية، وفي ضياعها وفقدانها إفقار للحركة العلمية والثقافية للبلاد، والدليل على ذلك كشفه للصفحة التي كادت أن تتم بين الطبيب اليهودي إفرائيم بن الزفان (ت.594هـ/ 1198م)، والتاجر العراقي الذي جاء إلى مصر في ولاية الأفضل لشراء عشرة آلاف مجلد من خزائن الطبيب والتوجه بها إلى العراق،⁽⁵³⁾ فعلم الوزير بذلك وأراد أن لا تخرج هذه الكتب من مصر، فقام بشرائها ونقلها إلى مكتبته الخاصة ليضيف إليها فناً من فنون العلم هو الطب، وليضرب مثلاً رائعاً على حرص الحاكم المستنير والمسئول عن هذه الثروة الهائلة من الكتب، باعتبارها ثروة قومية للبلاد لا يجوز التصرف فيها.⁽⁵⁴⁾

والجدير بالذكر؛ أن مكتبة الوزير الأفضل نُقلت بعد وفاته إلى مكتبة القصر،⁽⁵⁵⁾ عندما صادر الخليفة الأمر كل ممتلكاته وأقام في داره في القاهرة مدة أربعين يوماً، والكُتاب بين يديه يسجلون ما ينقل إلى القصر من تركة الأفضل وذخائره النفيسة، وكان من ضمن هذه الذخائر مكتبته الخاصة، ودواة كان يكتب بها مرصعة بالجواهر، وورق بلغت قيمته ألفاً وعشرين ألف دينار،⁽⁵⁶⁾ فكان ذلك عاملاً من عوامل إثراء مكتبة القصر، وزيادة مقتنياتها من الكتب والمجلدات.

كان لدى ابن روبيل (ت. 530هـ/ 1136م)، سليمان بن عبد الملك، مكتبة قيمة، فقد اشتهر ابن روبيل "بجمع الدواوين، واقتناء الأصول،

(53) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج3/ ص174 - 175).

(54) متولي قمر الدولة، المكتبة ودورها، (مرجع سابق)، ص105.

(55) سعيد إسماعيل علي، معاهد التعليم الإسلامي-. القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1978. ص199.

(56) ابن ميسر، المنتقى من أخبار مصر، ص79 - 82. النويري، نهاية الأرب، (ج28/ ص281).

وكتب بخطه الحسن علمًا كثيرًا".⁽⁵⁷⁾ أما بلمظفر نصر بن محمود بن المعرف (ت. 534هـ / 1139م)، كان من المهتمين بالعلوم الفلسفية والطبية والكيميائية، وكتب بخط يده كثيرًا من الكتب التي صنفت في هذه العلوم، حيث كان جيد الخط. كانت لديه مكتبة ضخمة بلغت آلافًا كثيرة من الكتب والمجلدات في كل الفنون، وصفها الشيخ سديد الدين المنطقي بقوله: "كان في داره مجلس كبير مشحون بالكتب على رفوف فيه، وإن بلمظفر لم يزل في معظم أوقاته في ذلك المجلس مشغلاً في الكتب وفي القراءة والنسخ".⁽⁵⁸⁾

كان أبو جعفر، أحمد بن الحصن بن عطاف العقيلي (ت. 542هـ / 1147م)، يمتلك مكتبة كبيرة، فقد "كان أعلى عصره همة في اقتناء الكتب وأشدهم اعتناءً بها ينتخبها ويتخذ لأعلاقتها صوانات وحفاظ، وجمع منها في كل فن الكثير والنفيس، وكتب بخطه كثيرًا".⁽⁵⁹⁾ وكان القاضي محمد بن عبد الله بن العربي المعافري (ت. 543هـ / 1148م)، يُتيح مكتبته لأقرانه: "قال القاضي أبو القاسم: كُنَّا نبيت معه في منزله في قرطبة، فكانت الكتب عن يمين وعن شمال، وينام في مكتبته إذا غلبه النوم دون أن يغير أثوابه، وكلما استيقظ مد يده إلى كتاب والمصباح لا يطفأ".⁽⁶⁰⁾

من أشهر المكتبات الأندلسية مكتبة عائلة ابن ملجوم (ت. 543هـ / 1148م) التي استوطنت الأندلس منذ نهائية القرن الخامس الهجري.

(57) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة/ تحقيق: إحسان عباس.- بيروت: دار الثقافة، 1964. (السفر الرابع/ ص75).

(58) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء، (ج3/ ص179 - 180).

(59) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الأول/ ص98).

(60) الضبي، بغية الملتبس، ص94.

فقد كان عيسى بن يوسف بن علي المعروف بابن ملجوم "راوية مكثراً جماعة للدواوين العتيقة والدفاتر النفيسة، وبذل مال جليل للحصول على الأصول لمكتبته"⁽⁶¹⁾. كما كان لدى عبد الرحمن بن يوسف بن ملجوم (ت. 605هـ / 1207م) خزانة دفاتر جلييلة الشأن، لم يكن لأحد من أهل العصر مثلها، وتصدق بها على ابنة له، ولم يترك عقباً غيرها، ويقال: إنها باعها بأربعة آلاف دينار.⁽⁶²⁾ وقد اقتنى عبد الرحيم بن عيسى بن ملجوم (ت. 604هـ / 1207م) من الدفاتر والدواوين كثيراً، وآلت إليه مكتبة والده عيسى وخزانه عمه عبد الرحمن، كما صارت إليه مكتبة أستاذه محمد بن أحمد الخزرجي الجياني، وكانت مكتبة حافلة بالنفائس والذخائر.⁽⁶³⁾

من الشخصيات التي اشتهرت بجمع الكتب في العصر المرابطي المنصور بن داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني (ت. 547هـ / 1152م)، وكان "ملوكي الأدوات، سامي الهمة، نزيه النفس، راغباً في العلم منافساً في الدواوين العتيقة والأصول النفيسة، جمع من ذلك ما أعجز أهل زمانه"⁽⁶⁴⁾.

يعود أصل بني جرادة إلى "محمد بن عامر بن ربيعة" المشهور بأبي جرادة، صاحب الإمام علي "كرم الله وجهه". كان مقر إقامتهم الأول في البصرة، لكن بحجة التجارة، أو تفشي الطاعون، يهاجر أحد أجدادهم

(61) ابن الأبار، التكملة، (ج2/ ص16).

(62) ابن الأبار، التكملة، (ج3/ ص52).

(63) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين.- تطوان: معهد مولاي الحسن، 1949. ص 283 - 284.

(64) ابن الأبار، المعجم في أصحاب القاضي أبو علي الصدي.- القاهرة: دار الكاتب العربي، 1967. ص 202.

إلى حلب بعد (200هـ/815م). اشتهر هذا البيت في الوسط الحلبي بأنه بيت علم، خرّج العديد من الشعراء، والأدباء، والفقهاء، والقضاة. ومنهم الشيخ "أبو الحسن علي بن عبد الله بن محمد بن أبي جرادة" (ت. 548هـ/1153م)، المدرس الأبرز للعلوم الدينية والأدبية في حلب، صاحب الأشعار العذبة. سمع على أدباء كل من حلب، وبغداد، والموصل، له خط جميل عبّر فيه عن كل ما جال بخاطره، وما حصله من علم؛ فكتب الكثير حتى استقر عنده من الكتب التي بخط يده مقدار ثلاث خزائن. كما عمل خزانيتين أخريين لكل من ولديه "أبي البركات"، و"أبي عبد الله".⁽⁶⁵⁾

كونت أسرة بني الفرس مكتبة قيمة، وهي من الأسر العلمية في الأندلس، وظهر فيها عدد من العلماء، من أبرزهم: محمد بن عبد الرحيم المعروف بـ ابن الفرس (ت. 567هـ/1171م)، وكان في وقته أحد حُفّاء الأندلس مع المعرفة بالأدب والأغربة إلى الضبط وجودة الخط، وكانت أصوله أعلّاقاً نفيسة لا نظير لها، جمع منها شيئاً عظيماً، وكتب بخطه أكثرها.⁽⁶⁶⁾ وقد انتقلت هذه المكتبة فيما يبدو إلى ابنه عبد المنعم بن محمد (ت. 597هـ/1200م)، فقد كان فقيماً تولى القضاء في عدد من المدن الأندلسية،⁽⁶⁷⁾ وقد زود هذه المكتبة بعدد كبير من الكتب، ثم صارت إلى أحد أبنائه وهو عبد الرحمن بن عبد المنعم (ت. 633هـ/1265م)، ثم أصابها ما أصاب غيرها من الضياع أو الحرق نتيجة الزحف النُصراني.

(65) ياقوت الرومي، معجم الأدباء، (ج16/ ص1-15). وانظر: سعيد الجوماني، مكتبات بلاد الشام، ص58.

(66) ابن الأبار، النكلمة، (ج2/ ص37 – 38).

(67) النباهي، تاريخ قضاة الأندلس، ص110.

كان لدى أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الخزرجي (ت. 569هـ/1173م)، مكتبة عظيمة مليئة بالذخائر والنفائس، "وقد اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخه بخطه الرائق، ولكنه نُكب في مكتبته بدروب من المحت كالغرق والنهب خلال فتنة كانت وقعت أيام مقامه في غرناطة، كذلك هُبت كتبه في مراكش حين دخلها عبد المؤمن (541هـ/1146م)، وكان معه عند توجهه إلى مراكش خمسة أحمال كتبًا"⁽⁶⁸⁾.

جمع ابن خير الإشبيلي (ت. 575هـ/1179م) مكتبة ضخمة "وكانت غاية في الصحة والإتقان، فقد خصص كل وقته لتصحيح كتبه ومعالجتها مع حسن خطه وجودة تقييده وضبطه فلحق بالمتقدمين وأربى على المتأخرين، وأدى ذلك إلى المغالاة فيها بعد وفاته، وتنافس الناس في اقتناء ما يوجد بخطه حتى بلغت أثمانها الغاية، ولم يكن له نظير في هذا الشأن مع الحظ الأوفر من علوم اللسان"⁽⁶⁹⁾.

وتعتبر مكتبة ابن خير الإشبيلي نموذجًا على أن أكثر من ثلثي مكتبات العلماء يتعلق بالكتب التي تفيد في دراساتهم الخاصة، وأن أقل من ثلثها يتناول المعارف الضرورية التي تناسب عصرهم، ويسهم في إبراز علومهم، فقد ضمت قائمة مكتبته (1124) كتابًا؛ كان منها في القراءات (108) كتابًا، وفي الحديث الشريف (112) كتابًا، وفي النحو (50) كتابًا، وفي اللغة (133) كتابًا، وفي النثر (87) كتابًا، وفي الشعر (162) كتابًا، فيكون مجموع هذه الكتب (652) كتابًا من أصل (1124) أي أكثر من

(68) عُمر فروخ، تاريخ الأدب العربي- بيروت: دار العلم للملايين، 1982. (ج 5/ ص 407). أحمد شوقي بنين، دراسات في علم المخطوطات والبحث الببليوغرافي- الرباط: كلية الآداب، 1993. ص 149.

(69) الذهبي، تذكرة الحفاظ- بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1377هـ (مج 2/ ج 2/ ص 1366).

النصف.⁽⁷⁰⁾ وهذا يؤكد اهتمام المؤلفين بتكوين مكتبات خاصة بهم تساعدهم وتمدهم بالمصادر التي هم في حاجة إليها للتأليف في ذات الموضوع.

هو الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد بن سلفة الأصبهاني (472-576هـ / 1079 - 1180م)، الذي قام بكثير من الرحلات في طلب الحديث والعلم، وكتب الكثير من الأمالي والتعاليق، وجاء إلى مصر في عهد الخليفة الظاهر بأمر الله الذي أمر وزيره الأمير العادل بن السلار ببناء مدرسة له في الإسكندرية سنة (546هـ / 1148م)، فأقام فيها الحافظ إلى أن توفاه الله، وكانت مدة بقاءه في الإسكندرية أربعًا وستين سنة لازم فيها مدرسته، وكان كثير المطالعة والقراءة في الكتب، وله من المؤلفات: (معجم مشيخة أصبهان، ومعجم شيوخ بغداد).⁽⁷¹⁾ وكان للحافظ مكتبة خاصة به، حيث روى الذهبي أنه كان مغرمًا بجمع الكتب والاستكثار منها، وما يحصل عليه من المال ينفقه في شرائها، وكان عنده خزائن كتب لا يتفرغ للنظر فيها، وعندما توفي وجد أن معظم الكتب في هذه الخزائن قد تلف منها الكثير، فتعفنت والتصقت ببعضها البعض، وذلك لشدة نداوة البلدة حتى كانوا يخلصونها بالفأس فتلف أكثرها.⁽⁷²⁾

أما "محمد بن أبي السعادات أبو عبد الله البندهي المسعودي" (ت. 584هـ / 1188م)، هو من درّس الملك الأفضل (أبا الحسن علي ابن

(70) يوسف العث، دور الكتب العربية العامة وشبه العامة لبلاد العراق والشام ومصر في العصر الوسيط/ ترجمه عن الفرنسية: نزار أباطة، محمد صباغ- بيروت: دار الفكر المعاصر، 1991. ص 312 - 317.

(71) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج1/ ص 105 - 106)

(72) الذهبي، تذكرة الحفاظ، (ج4/ ص 1303).

السلطان صلاح الدين) وانتهت إليه الرياسة في علم الحديث، والفقه، والأدب. بذل جهداً غير عادي في دراسة وفهم المقامات الحبرية؛ فشرحها في خمس مجلدات كبار، وكان محدثاً صوفياً جوالاً.⁽⁷³⁾ حصل بترحاله كتباً نفيسة،⁽⁷⁴⁾ وغريبة استعان بها في شرحه للمقامات. يقول السيوطي: "واقبلت عليه الدنيا فحصل كتباً لم تحصل لغيره".⁽⁷⁵⁾ وقيل لما فتح السلطان صلاح الدين مدينة حلب (579هـ / 1183م) نزل المسعودي جامع حلب، وجلس في خزانة وقفه، وراح يختار من مخطوطاتها ويعبئها في عدل⁽⁷⁶⁾ دون أن يوقفه أحد، فتكونت لديه مكتبة عظيمة بالكم والنوع، وقفها آخر المطاف على الخانقاه السمساطية التي كان يسكنها في دمشق.⁽⁷⁷⁾

كان الحكيم موفق الدين ابن المطران (ت. 587هـ / 1191م) "موفق الدين أبو نصر أسعد بن الفتح إلياس ابن جرجس المطران" متميزاً في مهنة الطب، خدم صلاح الدين الأيوبي (ت. 589هـ / 1193م) وحظي عنده بمنزلة رفيعة، كان له اهتمام خاص بالكتب واقتنائها حتى ليذكر أنه مات وفي خزانته من الكتب الطبية وغيرها ما يزيد على

(73) ابن خلكان: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان/ تحقيق: إحسان عباس-. بيروت: دار الثقافة، 1968. (ج4/ ص390). ابن قاضي شهبه: تقي الدين أبي بكر الأسدي، طبقات النحاة واللغويين/ تحقيق: محسن غياض-. بغداد: مطبعة النعمان، 1974. (ص161 – 162).

(74) الذهبي: محمد بن أحمد بن قايماز، سير أعلام النبلاء/ تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد نعيم العرقسوسي-. بيروت: دار الكتاب العربي، 2002. (ج21/ ص174).

(75) السيوطي: جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة/ تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم-. بيروت: المكتبة العصرية، 1964. (ج1/ ص158).

(76) العُدل: حقبية تعباً فيها الأشياء والمتاع.

(77) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج4/ ص391). ابن قاضي شهبه، طبقات النحاة، (ص161).

العشرة آلاف مجلد، فلقد كان كثير المطالعة للكتب لا يفتري عنها في أغلب أوقاته. والجدير بالذكر؛ أن مكتبة ابن المطران كان مصيرها البيع، فمما يُذكر عنه أن كتبه قد بيعت بعد وفاته بثلاثة آلاف درهم، وقد كان عنده أيضًا حين وفاته مسودات عديدة لمصنفات طبية وغيرها فأخذها أخواته وضاعت فيما بينهن، وقيل أنه شوهد عند إحداهن صندوق وقد بطنته بجملة من هذه الأوراق التي بخطه.⁽⁷⁸⁾

أما أبو علي عبد الرحيم بن علي بن محمد اللخمي البيسانى المعروف بالقاضي الفاضل (ت. 596هـ/ 1200م)، ولد في مدينة عسقلان ثم جاء إلى مِصرَ في عهد الخليفة الحافظ لدين الله الفاطمي، واشتغل في صناعة الإنشاء وعلوم الأدب وتفسير القرآن، وكان من أئمة الكُتَّاب المترسلين. وقد اشتهر القاضي الفاضل بحبه للكتب، فلقد كان وزيرًا لصلاح الدين الأيوبي (ت. 589هـ/ 1193م) استخلصه لنفسه عندما ملك الشام، فكان يقول: "لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل".⁽⁷⁹⁾

وكان للقاضي الفاضل مكتبة ضخمة يقال أنها بلغت مائة ألف مجلد،⁽⁸⁰⁾ حيث كان مغرمًا بجمع الكتب، وكانت لديه مكتبة عظيمة تُعدّ من أهم المكتبات في العصر الفاطمي، فقد كان يقتني الكتب في كل

(78) ابن أبي أصيبعة: موفق الدين أب العباس، عيون الأنباء في طبقات الأطباء/ تحقيق: نزار رضا- بيروت: دار مكتبة الحياة، [ب.ت.]. (ج4/ ص131-151). وانظر: يسري عبد الغني عبد الله، "من تاريخ المكتبات في الحضارة العربية الإسلامية: المكتبات الخاصة"- دورية كان التاريخية (القاهرة)- العدد(16): يونيو 2012. ص54.

(79) يحيى وهيب الجبوري، الكتاب في الحضارة الإسلامية- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1998. ص230.

(80) عبد القادر النعيمي، الدارس في تاريخ المدارس/ تحقيق: جعفر الحسني- القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، 1988. (ج1/ ص89 - 92)

أنواع العلوم ويأتي بها من كل البلدان، كما كان حريصًا على إثراء مكتبته بالكتب في مختلف ألوان المعرفة، لذلك كان لديه نُسخًا ومجلدين يعملون عنده في نسخ الكتب وتجليدها لحسابه، وكان يرسل آخرين للبحث عن الكتب في البلدان المختلفة قبل وفاته بعشرين سنة.⁽⁸¹⁾

فعندما قام صلاح الدين بتصفية مكتبات الفاطميين، قام القاضي الفاضل بانتقاء أفضل ما فيها، فكان ينظر إلى خزانة الكتب في القصر وكل كتاب "صلح له قطع جلده وربما في بركة كانت هناك، فلما فرغ الناس من شراء الكتب، اشترى تلك الكتب التي ألقاها في البركة على أنها مخرومات، ثم جمعها بعد ذلك"،⁽⁸²⁾ وبهذا حصل له قدر كبير من الكتب حيث شغف بحبها.

ويقال كذلك أنه عندما سقطت مدينة آمد سنة (579هـ/ 1183م) في يد صلاح الدين، وهب للقاضي الفاضل خزانة كتبها ليختار منها ما شاء، وكانت تلك الكتب تبلغ فيما قيل مليونًا وأربعين ألف مجلد، فاختار القاضي الفاضل منها ما حمولته سبعين حملاً، ذلك بالإضافة إلى الكتب التي قام بشرائها من أماكن مختلفة، ولذلك كانت مكتبته ضخمة بلا شك وفيها نسخ مكررة من الكتاب الواحد، فيقال أنه كان عنده معجم الصحاح ثماني عشرة نسخة.⁽⁸³⁾

(81) المقرئ، الخطط، (ج2/ص367).

(82) أبو شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية- بيروت: دار الجيل، (د.ت). (ج1/ص200).

(83) محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام- بيروت: مؤسسة الرسالة، 1978. ص116.

والدليل على أن مكتبة القاضي الفاضل تميزت بأنها كانت تضم أكثر من نسخة للكتاب الواحد، أنه عندما طلب ابنه كتاب الحماسة ليقرأه، أمر الفاضل خازن مكتبته أن يحضر له الحماسات "فأحضر خمسة وثلاثين نسخة، وصار ينفذ نسخة ويقول: هذه بخط فلان، وهذه عليها خط فلان، حتى أتى على الجميع، وقال: ليس فيها ما يصلح للصبيان"⁽⁸⁴⁾. وهذا أيضاً يدل على مقدرة القاضي الفاضل على التمييز بين الكتب ومعرفته بها وبقيمة كل نسخة منها، فقد كان لديه خطاطون مهرة وعلماء مشهورون، وكان يقضي معظم وقته في القراءة والكتابة وتجميع الكتب.

وقد أسهمت هذه المكتبة في تكوين المكتبة الملحقة بالمدرسة الفاطمية التي بناها القاضي الفاضل سنة (580هـ/ 1184م) في القاهرة بدرب ملوخيا بعد سقوط الدولة الفاطمية، ووقف عددًا كبيرًا من كتبها على فقهاء المذهبين الشافعي والمالكي بلغ "مائة ألف كتاب مجلد"⁽⁸⁵⁾، وظلت هذه الكتب في خدمة الطلاب والأساتذة حتى وقع الغلاء في مصر سنة (694هـ/ 1296م)، فأصاب الناس الضر والجوع، وأخذوا "يبيعون كل مجلد برغيف خبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب"⁽⁸⁶⁾. وهكذا؛ تددت هذه المكتبة العظيمة وما بها من كنوز المعرفة التي ظل صاحبها يجمع فيها ويجتهد في تكوينها طوال حياته، والتي كان معظم

(84) المقرئزي، الخطط، (ج2/ ص367).

(85) المقرئزي، الخطط، (ج1/ ص409).

(86) المقرئزي، الخطط، (ج2/ ص366). ومما بقي من نفائس هذه المدرسة إلى زمن المقرئزي (766 – 845هـ/ 1364 – 1441م) مصحف عثمان، وصفه المقرئزي بقوله: "وفي مكتبة المدرسة الفاضلية إلى الآن، مصحف قرآن كبير القدر جداً، مكتوب بالخط الأول الكوفي، يسميه الناس مصحف عثمان بن عفان... وهو في خزانة مفردة له بجانب المحراب من غريبه، عليه مهابة وجلالة". الخطط، (ج4/ ص197)

محتوياتها من خزائن القصور الفاطمية التي اشتملت على أمهات الكتب والمجلدات المعدومة المثل في سائر الأقطار.⁽⁸⁷⁾

كان الأمير عضد الدين (520 - 613هـ / 1126 - 1216م) "أسامة بن مرشد بن مقلد، أبو الفوارس" من أمراء شيراز، وهي حصن قريب من حماة في الشام، روى عنه ياقوت الرومي أنه قابله ووصفه بأنه شيخ ظريف، واسع الخلق، جماعة للكتب، قد زار ياقوت داره واشترى أبو الفوارس منه كتبًا، وذكر له أنه عنده من الكتب ما لا يعلم مقداره، إلا أنه قد باع منها أربعة آلاف مجلد في نكبة لحقته، غير أنها لم تؤثر في حجم كتبه، وكان قد أقعد في نهاية حياته عن الحركة، ولكنه كان صحيح العقل والذهن والفتنة والبصر، غير أن سمعه كان ثقيل.⁽⁸⁸⁾

كان للقاضي "أبو الحسن أحمد بن القاضي هبة الله بن أبيب جرادة" (ت. 613هـ / 1217م) والد كمال الدين بن العديم المؤرخ الشهير، مكتبة حوت بين جدرانها مصنفات بخط "ابن البواب"، ذكرها ابنه كمال الدين في معرض حديثه عن فضل أبيه في تعليمه الخط، وكيف كان يقدم له هذه الأصول حتى يتقن رسم الأحرف على منوالها.⁽⁸⁹⁾

أما "أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد الكندي" (ت. 613هـ / 1217م) الملقب تاج الدين، البغدادي المولد

(87) حنان محروس، المكتبات، (مرجع سابق)، ص63.

(88) ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب/ تحقيق: إحسان عباس- بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1993. (ج2/ ص100-102).

(89) ياقوت الحموي، معجم الأدباء، (ج16/ ص1-15). وانظر: سعيد الجوماني، مكتبات بلاد الشام، ص58.

والمنشأ. الدمشقي الدار والوفاة، المقرئ النحوي الأديب.⁽⁹⁰⁾ كان كبير المنزل والحظوة عند الملوك والأمراء والأعيان، وازدحم على بابهِ شيوخ العلم، وطلبه أولاد الملوك. وجمع أصول الكتب،⁽⁹¹⁾ فقد اقتنى من خزائن كتب الديار المصرية كل نفيس وعاد بها إلى الشام،⁽⁹²⁾ فتكونت لديه مكتبة نفيسة منتقاه بعناية، أتت في خزانة كبيرة ب (761) مجلدًا في علوم القرآن، والفقه، واللغة، والحديث والشعر، والنحو والتصريف، وعلوم الأوائل من طب وغيره.⁽⁹³⁾ أوقفها على فتاه ياقوت الذي أوقف قسمًا كبيرًا منها في مقصورة (ابن سنان الحلبية)، في الزاوية الشمالية الشرقية من الجامع الأموي في دمشق.⁽⁹⁴⁾

كان أبو القاسم أحمد بن حسان الإشبيلي (ت. 626هـ / 1229م) "من جلة رؤساء بلده وأتمهم مروءة وأكملهم سراوة ... جانحًا إلى الأدب حافظًا للأخبار حسن الكتابة، نبيل الخط عدلاً، عنى بجمع دفاتر العلم فاقتنى من أصولها العتيقة كثيرًا".⁽⁹⁵⁾ وكانت مكتبته في بهو قصره الذي

(90) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج2/ ص339).

(91) أبو شامة: شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي، الذيل على الروضتين (تراجم رجال القرنين السادس والسابع)/ تحقيق: محمد زاهد الكوثري- دمشق: مكتب نشر الثقافة الإسلامية، 1947. (ص95).

(92) ابن خلكان، وفيات الأعيان، (ج2/ ص340).

(93) أبو شامة، الذيل على الروضتين، (ص98).

(94) النعيمي: عبد القادر بن محمد الدمشقي، الدارس في تاريخ المدارس/ تحقيق: إبراهيم شمس الدين- بيروت: دار الكتب العلمية، 1990. (ج1/ ص371).

(95) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الأول/ ق1/ ص6)

ملأه من الكتب، "وكان الناس يلجؤون إلى خزانه كتبه في حالة احتياج الكتب".⁽⁹⁶⁾

من الذين تفخر بهم الأندلس في عشق الكتب وتكوين المكتبات أحمد بن مفرج الأموي المعروف بالعشاب ابن الرومية (ت. 637هـ/ 1239م)، فقد كان لديه مكتبة من كبريات المكتبات الخاصة في هذا العصر. فكان "كثير الكتب جماعاً لها، في كل فن من فنون العلم سمحاً لطلبة العلم، وربما وهب منها لملتسمه الأصل النفيس الذي يعز وجوده احتساباً وإعانة على التعلم".⁽⁹⁷⁾

كان الوزير جمال الدين القفطي المعروف بالقاضي الأكرم (560- 646هـ/ 1164- 1248م) "علي بن يوسف إبراهيم بن عبد الواحد بن موسى" وزير حلب عالماً بالنحو واللغة والفقه والحديث وعلم القرآن والمنطق وله تصانيف كثيرة،⁽⁹⁸⁾ قال عنه ياقوت أن لم ير من هو أكثر منه حرصاً على الكتب واقتنائها.⁽⁹⁹⁾ كان منزله في حلب منتدى أدبياً وعلمياً يجد كل عالم فيه ضالته، وكان القاضي الأكرم حريصاً على تحصيل الكتب، فلم يرياقت الحموي رغم تجارته الكثيرة بالكتب أشد اهتماماً منه بها، فجمع ما لم يمكن وصفه، حيث قدرت قيمتها

(96) ابن سعيد المغربي، اختصار القدر المعلى في التاريخ المحلي / اختصار: محمد بن عبد الله بن خليل؛ تحقيق: إبراهيم الإبياري. القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، 1959. ص 148 – 149.

(97) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة. (ج1/ ص 208). ربيرا، التربية الإسلامية في الأندلس، (مرجع سابق)، ص 190.

(98) ابن الفوطي: كمال الدين أبو الفضل عبد الرازق، الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة/ تحقيق: مصطفى جواد. بغداد: المكتبة العربية، 1932. ص 237- 238.

(99) ياقوت الرومي، معجم الأدباء، (ج4/ ص 388).

بخمسين ألف دينار. كانت مكتبته ضخمة زاخرة بالمخطوطات القديمة والنادرة، وأوصى بها الناصر صاحب حلب.⁽¹⁰⁰⁾

كان أبو بكر محمد بن البناء الإشبيلي (ت. 646هـ / 1248م) مولعًا باقتناء نفائس الكتب، كما كان مولعًا بنسخ الكتب النفيسة، ويودعها مكتبته، وقد اتسعت هذه المكتبة للكثير من الكتب حتى قيل إنه لما غادر إشبيلية حمل معه نحوًا من خمسمائة كتاب بخط يده.⁽¹⁰¹⁾

أما أمين الدولة الحسن بن غزال بن أبي سعيد (ت. 648هـ / 1250م)، وزير الملك الصالح. عالم وطبيب. كان سامريًا وأسلم في دمشق، واستوزره بها الملك الأمجد "بهرام شاه" فلم يزل عنده إلى أن توفي الأمجد سنة 628هـ، فاستوزره الملك الصالح إسماعيل، فأقام إلى أن ملك دمشق نجم الدين أيوب سنة 643هـ، ونقل الصالح إسماعيل إلى بعلبك واليًا عليها، فأراد ابن غزال اللحاق به فاعتقله نائب السلطنة في دمشق، وأرسل إلى مِصْرَ فسجن في قلعة القاهرة خمس سنوات، ثم أعدم شنقًا. وكان غزير العلم، استوعب قوانين صناعة الطب كلياتها وجزئياتها، ومن مؤلفاته في الطب "النهج الواضح".⁽¹⁰²⁾

مكتبة "الإمام المحدث الرحال شيخ المحدثين، وراويّة الإسلام أبي الحجاج شمس الدين" (ت. 648هـ / 1250م)، نزيل حلب، أوقف كتبها

(100) أيمن فؤاد سيد، الكتاب العربي المخطوط وعلم المخطوطات-. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997. ص 237.

(101) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلي المغرب، (ج1/ ص 254). عُمر فروخ، تاريخ الأدب العربي، (مرجع سابق)، (ج6/ ص 168).

(102) العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان/ تحقيق: محمد محمد أمين-. القاهرة: الهيئة المصريّة العامة للكتاب، 1987. ص 46. ابن الجوزي، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان-. حيدرآباد: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، 1952. (ج8/ ص 784 - 785).

على مكتبات مدينة حلب.⁽¹⁰³⁾ وقد وجد في حلب مكتبة عظيمة جمعها المفتي الإمام "أبو طالب بن عبد الرحمن بن العجمي" (ت. 658هـ / 1259م)، منشئ المدرسة الشرفية فيها، والتي صرف عليها ما يزيد على أربعمئة ألف درهم، إضافة لأوقاف جليلة كثيرة، منها الكتب النفيسة في فنون الحديث، والفقه، والتفسير، والنحو، وغير ذلك.⁽¹⁰⁴⁾

أما الشيخ الصالح المحدث أبو الفتح محمد بن أبي بكر الكوفي (ت. 667هـ / 1267م)، كانت له خزانة كتب خاصة وقفها على طلبه العلم.⁽¹⁰⁵⁾ وقد ذكر العيني أن الشيخ جلال الدين القونوي (ت. 672هـ / 1272م) كان يجلس في بيته وحوله الطلبة والكتب، وقد احترقت خزانة كتبه إثر حريق أصاب البيت في العام نفسه الذي توفي فيه.⁽¹⁰⁶⁾

كان أبو عثمان سعيد بن حكم القرشي (ت. 680هـ / 1282م) "حسن الخط، بارع المنازع فيه، يكتب خطوطاً مختلفة كلها في نهاية الحسن، شديد العناية بجمع الدفاتر وأعلاق الكتب حتى جمع منها ما لا نظير له كثرة وجودة، وكون مكتبة ضخمة، إذ كان مقصوداً بها من المسلمين والنصارى، فكان يتخدم بها إليه النصارى ويتقرب بها إليه المسلمون".⁽¹⁰⁷⁾

(103) شيرين فوزي، تاريخ المكتبات، ص 61.

(104) ابن شداد: عز الدين أبي عبد الله محمد بن علي، الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة (تاريخ مدينة حلب) / تحقيق: يحيى زكريا. دمشق: وزارة الثقافة، 1991.

(ج1/ ص258). محمد راغب الطباخ، "دور الكتب في حلب قديماً وحديثاً". مجلة مجمع اللغة العربية (دمشق). - مج (15)، ع (7،8) تموز وأب 1937. ص 303.

(105) العيني، عقد الجمان، (ج2/ ص55). الذهبي، العبر في خبر من غبر. الكويت: مطبعة الكويت الحكومية، 1966. (ج5/ ص286-287).

(106) العيني، عقد الجمان، (ج2/ ص129).

(107) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الرابع/ ص30 - 31).

كان علي بن موسى بن سعيد (ت. 685هـ / 1286م) "واسطة عقد بيته، ودره قومه، المصنف الأديب الرحال، الطرفة الإخباري، العجيب الشأن في التجول في الأقطار ومداخلة الأعيان والتمتع بالخزائن العلمية، وتقييد الفوائد المشرقية والمغربية. استعان بمكتبته في كتابة مؤلفاته العديدة، وقيل إنه خلف كتابًا يسمى (المرزمة) يشتمل على وقُرُ بعير من رزم الكراريس لا يعلم ما فيه من الفوائد الأدبية والإخبارية إلا الله عزوجل".⁽¹⁰⁸⁾

من المكتبات المملوكية الخاصة في مدينة دمشق، مكتبة الشيخ نور الدين أبي العباس بن مصعب الدمشقي (ت. 696هـ / 1296م)، حصل في مكتبه كتبًا نفيسة، وكان نور الدين من الأدباء.⁽¹⁰⁹⁾ أما الأمير بكتاش المنصوري (ت. 699هـ / 1299م)، أحد أمراء دمشق، نائب مدينة بعلبك، تجاوزت مقتنيات مكتبته المائة، وذلك لأن الأمير كان مغرم باقتناء الكتب النفيسة والمصاحف الغالية.⁽¹¹⁰⁾ وهناك مكتبة "الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد المقدسي الشافعي" (ت. 699هـ / 1299م) في مدينة القدس، اقتنى بها كتبًا نفيسة.⁽¹¹¹⁾

(108) ابن فرحون، الديباج المذهب، (مج2/ ص112 - 113). مصطفى الشكعة، مناهج

التأليف عند العلماء العرب - بيروت: دار العلم للملايين، 1974. ص652.

(109) ابن الحبيب: حسن بن عمر، تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه/ تحقيق: محمد أمين - القاهرة: مطبعة دار الكتب، 1976. (ج1/ ص197).

(110) السخاوي: شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، الذيل التام على دول الإسلام/ تحقيق: حسن إسماعيل - بيروت: دار ابن العماد، 1992. (ج1/ ص155).

(111) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج7/ ص788).

أما عياش بن الطفيل العبدي الأندلسي (ت. بعد سنة 700هـ)،⁽¹¹²⁾ من أشهر المكتبات الخاصة في الجزيرة الخضراء، مكتبة آل عظيمة. وقد حرص ابن عبد الملك المراكشي على زيارتها عندما نزل بالجزيرة الخضراء، قال: "وقد وقفت بالجزيرة الخضراء عند صاحبنا أبي عياش بن الطفيل على جملة وافرة من كتب سلفه مما تملكه أو كتبوه أو ألفه مؤلفوه".⁽¹¹³⁾ ومكتبة الصوفي "المحدث الحافظ أبي الحسن علي بن مسعود بن نفيس الحلبي الحنبلي" (ت. 704هـ / 1304م)، نزيل دمشق، كان يجوع ويشترى لمكتبه أجزاء الكتب.⁽¹¹⁴⁾

كان الوزير محمد بن عبد الرحمن بن الحكيم اللخمي (ت. 708هـ / 1308م)، ممنْ يعيشون اقتناء الكتب، وكانت لديه مكتبة قيمة، قال عنه ابن الخطيب: "وكان ذو صبابة باقتناء الكتب، جمع من أمهاتها العتيقة وأصولها الرائقة الأنيقة ما لم يجمعه في تلك العصور أحد سواه، ولا ظفرت به يده... أحيا معالم الأدب، وأكرم العلماء، ولم تشغله السياسة عن النظر، ولا عاقبة تدبير الملوك عن المطالعة والسماع، وأفرط في اقتناء الكتب حتى ضاقت قصوره عن خزائنها، وأثرت أنديته من ذخائرها، وقد استولت أيدي الغوغاء يوم قتله على تلك الكنوز فهبتها وأتلفتها".⁽¹¹⁵⁾

(112) الذهبي: الإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد (ت. 748هـ / 1348م)، معرفة القراء الكبار على الطبقات والأعصار (سلسلة عيون التراث الإسلام؛ 2) // تحقيق: طيار آتي قولاج- استانبول: 1995. (مج3/1412).

(113) ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، (السفر الثامن / ق1 / ص125).

(114) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج8 / ص20).

(115) المقري، نفع الطيب، (ج5 / ص499 - 504). المقري، أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض / تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شليبي-. القاهرة: لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1939 - 1942. (ج2 / ص342).

كان أحمد بن إبراهيم بن الزبير (ت. 708هـ / 1308م) يمتلك مكتبة خاصة، "ونظرًا لعلو مكانته سعى الوشاة بينه وبين حاكم مالقة، حتى أجبروه على الرحيل إلى غرناطة، ودهموا منزله، واستولت الأيدي على مكتبته الخاصة التي بها ذخائر كتبه، وفوائد تقييده عن شيوخه مما سبب له حسرة كبيرة، ولجأ إلى سلطان غرناطة محمد الأول بن يوسف (635- 671هـ) الذي أكرم مثواه، وعرف قدره، ورد إليه مكتبته".⁽¹¹⁶⁾

كان للشيخ الفاضل الفقيه النحوي يحيى بن عبد الوهاب الدمهري الشافعي (ت. 721هـ / 1321م)، خزنة كتب خاصة وقفها على خزنة جامع الظاهر.⁽¹¹⁷⁾ وكان الإمام الأديب شافع بن علي (649- 733هـ / 1251- 1332م) "شافع بن علي بن عباس بن عساكر الكناني العسقلاني المصري" متوليًا لديوان الإنشاء في مصر إلى أن أصاب العمى في أواخر حياته بسبب سهم أصابه سنة (680هـ / 1281م) فبقى ملازمًا بيته إلى أن توفي، وكان جامعًا للكتب يتعرف عليها وهو أعمى، فكان إذا لمس كتابًا قال هذا الكتاب الفلاني ملكته في الوقت الفلاني، وإذا أراد أي كتاب قام إلى خزنة كتبه واستخرجه كما وضعه، وقد خلف ابن علي بعد وفاته ثمانية عشر خزنة مملوءة كتبًا كان مصيرها البيع، حيث كانت زوجته تعرف ثمن وقيمة كل كتاب من كتبه، فبقيت تبيع منها بعد وفاته إلى سنة (739هـ / 1338م).⁽¹¹⁸⁾

(116) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة. (ج1/ ص190 - 193).

(117) العسقلاني، الدرر الكامنة، (ج4/ ص421 - 422).

(118) ابن شاكر الكتبي، فوات الوفيات/ تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود- بيروت: دار الكتب العلمية، 2000. (ج1/ ص474).

مكتبة "إبراهيم بن عيسى بن عبد السلام المفسر" (ت.739هـ / 1338م)، كان بها الكثير وأوقفها على مكتبات زوايا مدينة المعرة التابعة لمدينة حماه.⁽¹¹⁹⁾ وممن كان لديه مكتبة خاصة محمد بن أحمد جزى الكلبي (ت. 741هـ / 1340م)، فقد كان عاكفاً على العلم والاشتغال بالنظر والتقييد والتدوين، فقيهاً حافظاً قائماً على التدريس، مشاركاً في فنون العربية والفقه والأصول والقراءات والحديث والأدب مستوعباً للأقوال جماعاً للمكتب، ملوكي الخزانة، له تواليف كثيرة.⁽¹²⁰⁾

أما "محمد بن أحمد بن المنجا التنوخي الحنبلي" (ت.746هـ / 1345م)، ناظر الجامع الأموي في دمشق، اقتنى في مكتبته شيئاً كثيراً، وذلك نظراً لأنه كان جماعه للمكتب.⁽¹²¹⁾ يذكر ابن الخطيب عن الشيخ سعيد بن أحمد بن ليون (ت. 750هـ) قوله: "وكانت بضاعته خزانة كتب جمعت الآباء والأمهات والفرقد... والحقائق والترهات، ولا يزال عاكفاً على ذنانها جانياً لألفاف جنانها".⁽¹²²⁾

كان ابن القيم الجوزية (691- 751هـ / 1292- 1350م) "محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزرعي الدمشقي" تلميذاً لشيخ الإسلام ابن تيمية (661- 728هـ / 1263- 1328م) وكان يتبعه في كل أقواله حتى أنه سُجن وعُذّب بسبب ذلك.⁽¹²³⁾ وكان ابن القيم الجوزية مولعاً بجمع الكتب فحصل منها ما لا يحصى، وما لا يتهيأ لغيره تحصيل عُشره من

(119) شيرين فوزي، تاريخ المكتبات، ص 67.

(120) ابن فرحون، الديباج المذهب، (مج 2/ص 274). المقري، نفع الطيب، (ج 5/ص 514).

(121) ابن أبيك الصفيدي: صلاح الدين خليل، الوافي بالوفيات/ تحقيق: أحمد الأناؤوط، وتركي مصطفى-. بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2000. (ج 2/ص 108).

(122) ابن الخطيب، الكتبية الكامنة، ص 86.

(123) خير الدين الزركلي، الأعلام-. بيروت: دار العلم للملايين، 1980. (ج 6/ص 56).

كتب السلف والخلف،⁽¹²⁴⁾ فكون بذلك مكتبة مصيرها البيع على يد أبنائه، فلقد استمر أبنائه يبيعون كتبه بعد وفاته لفترة طويلة سوى ما اصطفوه لأنفسهم.⁽¹²⁵⁾ ومن الأمور الجدير بالذكر هنا؛ أن بيع الكتب كان من العوامل التي أثرت على مصير الكتاب الإسلامي بصورة سلبية أكثر منه إيجابية، حيث أدى بيع الكتب إلى تشتتها وضياعها في أماكن متفرقة.⁽¹²⁶⁾

مكتبة "شمس الدين محمد بن يحيى بن محمد بن سعد بن نمير" (ت. 759هـ/1357م)، المتقن المحدث المفيد الحنبلي، في مدينة القدس، جمع بها كتباً لا تحصى.⁽¹²⁷⁾ مكتبة "زين الدين عمر بن عثمان بن سالم بن خلف بن فضل المؤدب الحنبلي" (ت. 760هـ/1358م)، خطيب مدينة بعلبك، التابعة لنيابة دمشق، كان أكثر كتبها في الحديث.⁽¹²⁸⁾

كان الشيخ الخطيب أبو عبد الله بن حربلة (ت. قبل 760هـ/1359م) "عنده خزانة كتب أسفارها" عديدة وأغراضها سديدة".⁽¹²⁹⁾ أما مكتبة "يعقوب عبد الكريم الحلبي في دمشق" (ت. 763هـ/1361م)،

(124) ابن كثير: أبو الفداء الحافظ، البداية والنهاية/ تحقيق: أحمد أبو ملحـم. بيروت: دار الكتب العلمية، 1987. (ج13/ ص246).

(125) شعبان عبد العزيز خليفة، الكتب والمكتبات في العصور الوسطى. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، 1997. ص269.

(126) وسام منير عبد الرحمن، مصائر الكتب الإسلامية/ أطروحة ماجستير إشراف: محمود عباس حمودة-. القاهرة: كلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر، 2007. ص90.

(127) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج8/ ص323).

(128) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج8/ ص325).

(129) ابن الخطيب، الكتبية الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة/ تحقيق: إحسان عباس-. بيروت: دار الثقافة، 1963. ص53.

اقتنى بها من الكتب النفيسة شيئاً كثيراً للغاية.⁽¹³⁰⁾ أما مكتبة "شهاب الدين أحمد بن حمدان بن سالم بن داود الأذري" (ت. 783هـ/1381م)، نزيل حلب، حصل بها ما لم يحصل عند غيره.⁽¹³¹⁾

ذكر ابن حجر العسقلاني عن القاضي برهان الدين بن جماعة (ت. 790هـ/1387م) أنه "اقتنى من الكتب النفيسة بخطوط مصنفها وغيرهم ما لم يتبها لغيره".⁽¹³²⁾ وتعدّ هذه المكتبة الخاصة به هي نواة مكتبة المدرسة المحمودية، فقد اشتراها الأمير محمود الاستادار (ت. 779هـ/1396م) من تركته بعد موته، ووقفها وشرط ألا يخرج منها شيء من مدرسته.⁽¹³³⁾

مكتبة "الإمام الفقيه الشافعي المحدث المفسر الواعظ زين الدين أبي حفص عمر بن مسلم بن سعيد بن بدر الدمشقي" (ت. 792هـ/1389م)، كان بها من نفائس الكتب شيئاً كثيراً.⁽¹³⁴⁾ أما مكتبة "عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن زين الدين عبد الرحمن الدمشقي الحنبلي" المعروف بـ ابن قيم الجوزية (ت. 799هـ/1396م)، احتوت على

(130) العسقلاني: شهاب الدين أحمد بن علي، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/ تصحيح: سالم الكرنكوي- بيروت: دار الجيل، 1993. (ج4/ ص 287 - 288).

(131) الأذري، طبقات المفسرين، ص 326.

(132) العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة/ ضبط وتصحيح: عبد الوارث محمد علي- بيروت: دار الكتب العلمية، 1997. (ج1/ ص 38). العسقلاني، إنباء الغمر بأبناء العمر/ تحقيق: حسن حبشي- القاهرة: المجلس الأعلى للثنون الإسلامية، 1969. (ج3/ ص 299).

(133) فؤاد سيد، "نصان قديمان في إعارة الكتب"- مجلة معهد المخطوطات العربية، 1958. (مج1/ ص 127 - 128).

(134) الأذري، طبقات المفسرين، ص 325 - 326.

كتبًا نفيسة أخذها من عمه الشيخ شمس الدين بن القيم، وكان أبو الفداء من الأفاضل.⁽¹³⁵⁾

مكتبة "شهاب الدين أبي العباس أحمد بن محمد" (ت. 803 هـ/1400م)، نزيل بيت المقدس، كان بها كثير من الأجزاء والكتب.⁽¹³⁶⁾ أما محمد بن محمد المراغي (ت. 811 هـ/1408م)، ترك كتبًا كثيرة جدًا، وقد تلف أكثرها بالأرضة وغيرها.⁽¹³⁷⁾ ويذكر أن أحمد بن سليمان (ت. 812 هـ/1409م) كان يمتلك مكتبة خاصة في بيته، وقف عدة كتب منها، وجعل مقرها في رباط الخوري في مكة المكرمة.⁽¹³⁸⁾

مكتبة "أحمد بن محمد بن عماد الشهاب القدسي الشافعي" (ت. 815 هـ/1412م)، كان بها مصنفات كثيرة، منها على سبيل المثال: "البيان في تفسير غريب القرآن".⁽¹³⁹⁾ أما مكتبة "علي بن محمد بن سعد الحلبي الشافعي" (ت. 843 هـ/1439م)، احتوت على تصانيف كثيرة مثل "الطبية الرائحة في تفسير الفاتحة"، وكان الحلبي عالمًا في أنواع العلوم.⁽¹⁴⁰⁾

أما تغري برمش سيف الدين الجلاي الناصري (ت. 852 هـ/1433م)، كان نائب القلعة في القاهرة، ويعرف بالفقيه، وذكر السخاوي أنه كان مستكثرًا من الكتب.⁽¹⁴¹⁾ ويذكر أن قال: "إذا مات شيخ الإسلام

(135) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج8/ ص479 - 480).

(136) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج9/ ص44).

(137) السخاوي، الضوء اللامع، (ج9/ ص29).

(138) السخاوي، الضوء اللامع، (ج1/ ص308).

(139) الأدنوي، طبقات المفسرين، ص311 - 312.

(140) ابن العماد، شذرات الذهب، (مج8/ ص554 - 555).

(141) السخاوي، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - بيروت: دار التراث، 1981. (ج3/ ص33 -

ابن حجر، تكثر ديونني": إشارة إلى أنه سيشتري الكثير من كتبه، فيكون في ذلك إثقاله بالدوين، مما يكشف عن نفاسة وضحامة مكتبة ابن حجر، فضلاً عن ولع الجلاي بتحصيل نفائس الكتب.⁽¹⁴²⁾

أما الأمير يشبك بن مهدي الظاهري جقمق (ت. 885هـ/ 1490م)، أحد أمراء المماليك، وقد "تحصل من الكتب النفيسة شراءً واستكتاباً".⁽¹⁴³⁾ والأمير جقمق قرا العلائي الظاهري جقمق، ويعرف بأمر أخور الجمال (ت. 887هـ/ 1492م)، ولي نيابة الإسكندرية بعد إينال الأشرف قايتباي، وكان ذا هممة عالية ورغبة في لقاء العلماء، وكان يجمع الكتب العلمية ويقتنيها.⁽¹⁴⁴⁾

وقد روى ابن إياس في كتابه "بدائع الزهور" بين حوادث سنة 888هـ، أن القاضي نجم الدين يحيى بن حجي (ت. 888هـ/ 1493م)، كان عالماً فاضلاً، ولما مات في العام المذكور، وُجد عنده خزانة كتب بها أكثر من ثلاثة آلاف مجلد من الكتب النفيسة.⁽¹⁴⁵⁾ أما مكتبة "الإمام الفقيه الخطيب محمد بن طولون" (ت. 953هـ/ 1546م)، في دمشق،

(142) محمد كمال الدين عز الدين، الحركة العلمية في مصر في دولة المماليك الجراكسة: دراسة عن التاريخ والمؤرخين (784 – 922هـ/ 1382 – 1517م)/ أطروحة دكتوراه إشراف: سيدة إسماعيل كاشف- القاهرة: كلية البنات – جامعة عين شمس، 1989. ص83.

(143) السخاوي، الضوء اللامع، (ج10/ ص272 - 274).

(144) السخاوي، الضوء اللامع، (ج3/ ص75).

(145) مجاهد محمد سعيد، الحياة العلمية في دولة المماليك البحرية (648 – 783هـ/ 1250 – 1382م)/ أطروحة دكتوراه إشراف: عبد القادر عثمان محمد- أم درمان: كلية الآداب – جامعة أم درمان الإسلامية، 2011. ص100.

احتوت على الكثير، وتم تدميرها على يد العساكر العثمانيين في نهاية الدولة المملوكية في بلاد الشام.⁽¹⁴⁶⁾

أحمد بن إينال العلائي (ت. غير معروف) داودار برسباي، كان عالماً فاضلاً وتمتع بالإقبال على التحصيل من نفائس الكتب، فحصل منها الكثير.⁽¹⁴⁷⁾ أما المحب بن الشحنة (ت. غير معروف) تولى منصب القضاء الأكبر في مِصْرَ عصر المماليك الجراكسة، ويذكر أنه كان ولعاً بتحصيل الكتب النفيسة، جحداً لما يستعيره من مكتبات الغير، على حد قول السخاوي فيه: "عظيم العناية في تحصيل كتب العلوم، بحيث اجتمع عنده من نفائس كل فن، ما قل أن يجتمع لغيره، وربما اغتصبها ممن هي عنده؛ كان يستعيرها، ثم لا يعيدها".⁽¹⁴⁸⁾

خاتمة

وضع الأقدمون حجر الأساس للثقافة والحضارة اللتين نرى ثمارهما قد بلغت في عصرنا من النضج والاكتمال مبلغاً بعيداً، ومما لا شك فيه؛ أن مبعث الثقافة والحضارة في كل عصر وأوان هو العلم، ولا يقوم علم إلا على مؤلفات تُدَوّن ومعلومات تُكْتَنَز في أسفار، يتألف من اجتماع شملها وانضمام بعضها إلى بعض، ثروة أدبية وعلمية زاخرة، يُطلق عليها داخل البيت (المنزل) اسم "خزانة كتب" أو "مكتبة شخصية". والحق أن عدد المكتبات الشخصية (الخاصة) في العصور الإسلامية لا يمكن حصرها، ومن المؤكد أن عدد المكتبات الخاصة بالأفراد كان يفوق الحصر، لأن المصادر لم تشر إلى عددها ولو حتى

(146) الأندروى، طبقات المفشرين، ص 325 – 326.

(147) السخاوي، الضوء اللامع، (ج6/ ص695).

(148) محمد كمال، الحركة العلمية في مِصْرَ، (مرجع سابق)، ص 84.

بطريقة تقريبية، ولكن ذكرت عدد كبير من أصحاب هذه المكتبات في مصر والشام والعراق والأندلس، ومن لم تأت المصادر على ذكر مكتبته من أصحاب العلم والفكر - على سبيل المثال - لا يعني ذلك أنه لم يكن يمتلك واحدة، فقلّ أن تجد عالماً إلا وله مكتبة كانت تحوي آلافاً من الكتب.